الإيمان الحق

شهادة .. وعقيدة .. وعبادة

المستشار على جريشة

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

« فاتحة »

كتبتها ... فى الظلام .. !

وما ظننت أن ترى النور .. !

كانت آخر كلماتها .. مع أول خيط فى فجر الخامس عشر من رجب المبارك سنة ١٣٨٩ (الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٦٩) ... وكان ذلك بشيرا بفجر جديد ... بزغ بعد عام ... أو نحو عام !

كانت كلمات من القلب .. أرجو أن تصل إلى القلوب .

وكانت قبسا من نور .. أرجو أن تكون نورا بين الناس . !

عالجت بها ... أخطر قضية ... !

قضية الإيمان ... !

بعد أن تاه ... بين إفراط .. وتفريط !

إفراط الذين غالوا فكفّروا الناس برأى أو معصية !

وتفريط الذين أسرفوا على أنفسهم .. وقالوا حسبنا ما فى القلوب وعبدوا الجوارح للشهوات والشياطين !

والإيمان الحق .. برىء من أولئك وهؤلاء !

إنه .. شهادة .

وعقيــدة ..

وعبــادة ... كما سوف يبين بمشيئة الله !

وهذه .. هى الكلمات ...

كما كتبت .. داخل «زنزانة» مظلمة ...

ليس فيها من تعديل إلا تخفيف فى الجانب الفقهى لتكون ميسرة للجميع بإذن الله .. والله المستعان .

وقد تفضل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر بتقديم هذا البحث المتواضع بكلمات .. فيها صدق وفيها نور .. جزاه الله عن جهاده عن الإسلام خير الجزاء .

تقديم

فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر

الإيمان .. قول وعمل

يقول الله تعالى :

«قد أفلح المؤمنون .. الذين هم فى صلاتهم خاشعون .. والذين هم عن اللغو معرضون .. والذين هم للزكاة فاعلون .. والذين هم لفروجهم حافظون .. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين .. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون .. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون .. أولئك هم الوارثون .. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» .

ويقول سبحانه :

«إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون .. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .. أولئك هم المؤمنون حقا لهم

درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه البخارى عن أنس :

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وفيما رواه البخارى : عن أبي هريرة رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

«فوالذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده» .

وفيما رواه البخارى : عن أنس قال ـ قال صلى الله عليه وسلم :

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» .

وفيما رواه البخارى :

عن سالم بن عبد الله عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «دعه فإن الحياء من الإيمان» .

وقد كتب الإمام البخارى رضى الله عنه فى صحيحه ـ كتابا عن الإيمان سار فيه على هدى الكتاب والسنة والصحابة والتابعين وسلف الأمة ، وقد قدم الكتاب بمقدمة ، يستدل فيها بآيات من الكتاب الكريم ، وكانت أحاديث الإيمان كلها موجهة لليقين بأن الإيمان قول وفعل .

يقول الإمام البخارى عن الإيمان :

« وهو قول وفعل ، ويزيد وينقص » ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية ونذكر منها :

قال الله تعالى :

« ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم »

الفتح آية ٤

« وزدناهم هـــدى »

الكهف آية ١٣

« ويزيد الله الذين اهتدوا هدى »

مريم آية ٨٦

«والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم»

محمد آية ١٧

«ويزداد الذين آمنوا إيمانا»

المدثر آية ٣١

وقوله :

«أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا» .

التوبة آية ١٢٤

وقوله جل ذكره :

«فاخشوهم فزادهم إيمانا» .

آل عمران آية ١٧٣

وقوله تعـالى :

«وما زادهم إلا إيمانا وتسليما»

الأحزاب آية ٢٢

وقد أفلح المؤمنون .

وإذا كان هذا رأى البخارى ، رضى الله عنه ، فإن

أبا الحسن على بن خلف يقول فى شرح صحيح البخارى :

(مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها ـ أن الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص) اهـ .

ويقول عبد الرزاق ـ حسبما يذكر الإمام النووى فى شرح مسلم : ص ١٤٦ (الجزء الأول) :

(سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا ـ سفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، وعبيد الله بن عمر والأوزاعى ، ومعمر بن راشد ، وابن جريج وسفيان بن عيينة ـ يقولون :

الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص .

وهذا قول ابن مسعود ، وحذيفة ، والنخعى ، والحسن البصرى ، وعطاء ، وطاووس ، ومجاهد ، وعبد الله بن المبارك .

ويتابع عبد الرزاق الحديث فيقول :

فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين ـ هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة : التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع : أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه ، لا

هذا مذهب جماعة أهل السنة : أن الإيمان قول وعمل .

قال أبو عبيد : وهو قول مالك ، والثورى والأوزاعى ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم .

قال ابن بطال : وهذا المعنى أراد البخارى رحمه الله إثباته فى كتاب الإيمان ، وعليه بوب أبوابه كلها فقال :

باب أمور الإيمان .

باب الصلاة من الإيمان .

باب الزكاة من الإيمان .

وباب الجهاد من الإيمان ، وسائر أبوابه .

وإنما أراد الرد على المرجئة فى قولهم : إن الإيمان قول بلا عمل ، وتبين غلطهم ، وسوء اعتقادهم ، ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة .

وينهج الإمام الطبرى هذا المنهج أيضا فيقول : «الايمان – كلمة جامعة : الإقرار بالله وكتبه ورسله ، وتصديق الإقرار بالفعل»[1] هـ .

بيد أن العامة – وهى دائما الأكثرية – انتهت بالإيمان إلى

يستحق اسم مؤمن ، ولو عرف وعمل وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد ـ لا يستحق اسم مؤمن ، وكذلك إذا أقر بالله تعالى ، وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمنا بالإطلاق ، وإن كان فى كلام العرب يسمى مؤمنا بالتصديق ـ فذلك غير مستحق فى كلام الله تعالى لقوله عز وجل :

«إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون .. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .. أولئك هم المؤمنون حقا» .

فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته .

وما ذكره عبد الرزاق يؤيده ابن بطال فى باب من قال :

«الإيمان هو العمل» من شرح صحيح البخارى فيقول :

فإن قيل قد قلتم إن الإيمان هو التصديق .

قيل التصديق هو أول منازل الإيمان ، ويوجب للمصدق الدخول فيه ، ولا يوجب له استكمال منازله ، ولا يسمى مؤمنا مطلقا .

أن أصبح ـ على حد تعبير الشيخ محمد عبده ـ «يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ من النفس إلا مأخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر فى الأفعال : لأنه لم يقع تحت نظر العقل ، ولم يلحظه وجدان القلب بل أعلقت عليه خزانة الوهم» .

ومثل هذا الرأى يسمونه إيمانا لا يفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن . ا هـ .

وهذا الذى غلب على العامة من معنى الإيمان أثر على بعض علماء الكلام أنفسهم فتناقشوا نقاشا طويلا فى معنى الإيمان ، وهل هو التصديق بالقلب فحسب بالغا ما بلغ هذا التصديق من الضعف والسلبية ؟ أو أنه تصديق وفعل ؟

وقد أراق المتكلمون كثيرا من المداد لتحبير العشرات من الصفحات فى هذا الموضوع .

وإذا تدخل العامة فى الشئون العلمية ، وإذا تأثر العلماء بآراء العامة متخلين بذلك عن القيادة الرشيدة ـ فإن الأمر ينتهى لا محالة بنزول العلماء إلى المستوى الشعبى ، شاعرين بهذا النزول أو غير شاعرين ، ومن هنا كان الرأى الذى يسود

فى بعض أوساط المتكلمين أن الإيمان مجرد التصديق مهما كانت منزلة هذا التصديق من الهزل والسلبية ، وكان من فضل الله علينا أن بين لنا سبحانه مقاييس للإيمان فى كتابه الكريم :

والصور الإيمانية فى هذا الكتاب الخالد لا تكاد تحصى .

وكان من فضل الله أيضا أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه بكلامه وفعله ، وسيرته يحقق مثلا أعلى للإيمان كما أراد الله ورسوله .

ونريد ـ بتوفيق الله ـ فى حديثنا عن الإيمان أن نتخذ الأساس :

القرآن الكريم ، وأحاديث صحيحة رواها الإمام البخارى ، والإمام مسلم فى أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى .

وقد ذكرنا بعض الآيات القرآنية فيما سبق ، أما الأحاديث :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ـ يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

«الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان» .

(رواه البخارى)

وروى الإمام مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

«الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» .

(متفق عليه)

وحينما بين سادتنا العلماء المحققون ـ الذين أخلصوا لله ورسوله تلك الشعب عن طريق الأحاديث الشريفة التى وضحت الإيمان ، وعن طريق الآيات القرآنية الكريمة ، التى تحدثت عن الإيمان ـ قسموا تلك الشعب إلى ما يختص منها بالقلب ، وما يختص باللسان ، وما يختص بالبدن ، أى أن الإيمان يغمر الكيان الإنسانى كله ـ اعتقادا ، وقولا وفعلا .

ومن الأحاديث الشريفة نتبين :

أن الحب فى الله ، والبغض فى الله من الإيمان .

(البخارى)

وأنه «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .

(البخارى)

وأن الذى يؤذى جاره ليس بمؤمن

(الشيخان)

وليس بمؤمن من شبع وجاره جائع .

وأن الجهاد من الإيمان ، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

«انتدب الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بى ، وتصديق برسلى ــ أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ، ثم أقتل» .

(البخارى)

ومنها نتبين أيضا أن قيام ليلة القدر من الإيمان .

(البخارى)

والإنصاف من النفس من الإيمان .

(البخارى)

وبذل السلام للعالم من الإيمان .

(البخارى)

والإنفاق من الإقتار من الإيمان .

(البخارى)

وتطوع قيام رمضان من الإيمان .

(البخارى)

وصوم رمضان إيمانا واحتسابا من الإيمان .

(البخارى)

والصلاة من الإيمان ، بل لقد عبر الله عنها بالإيمان فى قوله تعالى :

«وما كان الله ليضيع إيمانكم» .

(البخارى)

ويتغلغل الإيمان فى الحياة الاجتماعية حتى يصل إلى السهل من أمرها والميسور فتكون إماطة الأذى عن الطريق من

الإيمان ، ويكون إفشاء السلام ـ تعارفا وتوددا ـ من الإيمان .

وإذا ما تغلغل الإيمان فى النفس وجد المؤمن حلاوة الإيمان ، وهو لا ينعم بحلاوة الإيمان إلا :

بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله

وأن يكره أن يعود إلى الكفر ، كما يكره أن يقذف فى النار .

(البخارى)

* * *

وأساس الإيمان على كل حال هو الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره .

وهذا الأساس كأساس القصر بالضبط وكما لا يطلق على أساس القصر أنه قصر ـ فكذلك لا يطلق على أساس الإيمان أنه إيمان كامل .. وكما لا يكون القصر بدون الأساس فإنه لا

يوجد الإيمان بدون الشهادتين .

وهذا الأساس نفسه يتبلور فى :

شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله

* * *

ولقد كتب الأستاذ على جريشه فى هذه المعانى هذه الصفحات النفيسة التى تلى : كتبها بأسلوب المؤمن ، وبتفكير العالم ، ودعمها بما يؤيد اتجاهه ـ وهو الاتجاه الإسلامى الصادق ـ من الوثائق ، والأسانيد فأحسن كل الإحسان .

والله أرجو أن يهدى إلى هذا البحث ، وأن يهدى به ، إنه سميع قريب مجيب .

د . عبد الحليم محمود

تقدمة البحث

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... تلقى المسلمون إيمانهم من كتاب ربهم ، وسنة رسوله ونهلوا من النبع الصافى ما ارتوت به قلوبهم ، واطمأنت إليه عقولهم .

ولم يكن الإيمان عندهم مجرد كلمات خاوية يرددها اللسان[1] ... ولا كان مجرد علم[2] يرد على القلب أو الخاطر ـ بل كان يقينا يمتلئ به القلب علما وعملا .. حبا لله وذلا إليه .. خوفا منه ورجاء فيه .

وشهادة ينطلق بها اللسان .. صدقا .. وتصديقا .

وعبادة تتحرك بها الجوارح ... شهادة صدق . أن ما وقر فى القلب ونطق به اللسان .. هو الإيمان الحق !

---

١ ـ قال الكرامية : إن الإيمان قول اللسان .. وكفى !
٢ ـ قالت الجهمية : إن الإيمان علم القلب .. وكفى !

وعاش المسلمون إيمانهم ... قبل أن يرسموه فى نظرية أو يسطروه فى كتاب !

وظل كذلك .. حياة للقلوب والألسنة والجوارح على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والراشدين من الخلفاء حتى كانت الفتنة التى أطلت برأسها فى عهد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه .. وثارت مسائل خدشت صفاء العقيدة .. [1]

وعلى عهد العباسيين كانت ترجمة للفلسفة اليونانية وغيرها من علوم الروم والفرس .. وثار تشكيك فى عقائد المسلمين ! .. ونفر علماء المسلمين يدفعون عن عقيدة الإسلام .. واضطروا إلى تناول القضايا التى ثارت بنفس الأسلوب التى أثيرت به ونشأ علم الكلام فى جو غريب عن طبيعة الحياة الإسلامية الأصيلة يتناول قضايا التوحيد .. بغير الأسلوب الذى تناولها به القرآن والسنة .

ودرج العلماء من ذلك الحين على تناول قضايا

---

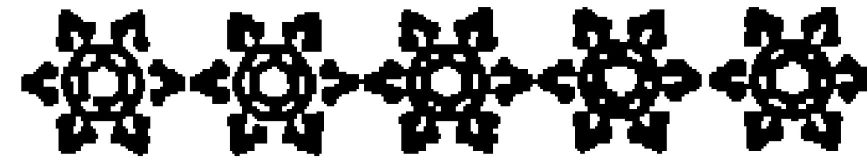
١ ـ تفصيل ذلك فى كتاب المذاهب السياسية الإسلامية ص ١١٤/١٢٠ لأستاذنا الإمام محمد أبو زهرة ـ رحمه الله .

التوحيد .. على ذلك النحو .. مما انتهى بهذا العلم الجليل إلى الجفاف والتعقيد .. فجهل به عامة المسلمين ، ونفر منه خاصتهم ، وهاجمه الأئمة الثلاثة : الشافعى ، ومالك ، وابن حنبل ... ومع ذلك بقيت كليات تدرسه على هذا النحو الجاف المعقد ... فزاد الجهل والنفور .. من زاد المسلمين .. إيمانهم وعقيدتهم[1] !

---

١ ـ يقول فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود «وجاء المتأخرون الذين فقدوا الذوق العربى الفصيح ، والاسترشاد الواعى من القرآن الكريم والسنة النبوية فصبوا قوالب التوحيد فى قواعد جافة ومن ثم ضعف الإيمان وضعفت الإرادة تبعا لذلك ، وضعفت الأخلاق بالتالى (من تقديم لبحث العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم لأستاذنا المرحوم محمد أبو زهرة) وينظر أيضا مقدمة المنقذ من الضلال لفضيلته أيضا ولقد قيض لهذه الأمة من مسح عن وجه عقيدتها ما شابها من غبش : مثل الإمام ابن حنبل فى القرن الثالث الهجرى والإمام ابن تيمية فى القرن السابع فكانت كتابتهم عودة إلى نهج السلف الصالح ـ وسار فى أثرهم حديثا الإمام حسن البنا فى كتابه العقائد والشيخ محمد أبو زهرة فى العقيدة الإسلامية ، والدكتور محمد البهى فى توجيه القرآن الكريم فى الإيمان .. الخ .

ولسوف نعرض بمشيئة الله .. للإيمان الحق كما عرفه القرآن ، والسنة ، والسلف الصالح .. ثم نعرض لما كان فيه من إفراط أو تفريط .



القسم الأول

الإيمان الحق

الإيمان الحق

قد تكفى شهادة اللسان أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله للقول بإسلام المسلم .. إسلاما يعصم دمه وماله .. لكنها لا تكفى لتحقق الإيمان الذى تتم به النجاة ... من هنا قال الله سبحانه فى فريق لايزال يتكرر على مر الزمان «قالت الأعراب آمنا .. قل لم تؤمنوا .. ولكن قولوا أسلمنا .. ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ..» ، وتحدث عن حقيقة الإيمان «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ... أولئك هم الصادقون» وفى أماكن أخرى «أولئك هم المؤمنون حقا» .

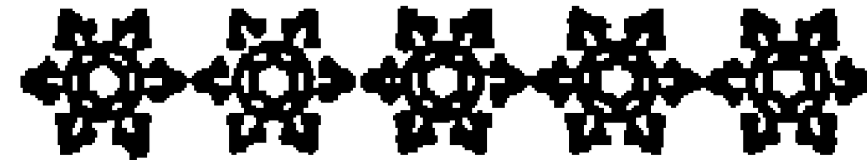
فالإيمان الحق .. كما عرفه الكتاب ، والسنة وانعقد عليه الإجماع[1] : قول اللسان ، وعقد القلب ، وعمل

---

١ ـ حكى إجماع الصحابة والتابعين الإمام الشافعى فى الأم وأبو عمر بن عبد البر ، وأبو عمر الطلمنكى (الإيمان لابن تيمية ص ١٢٣ ، =

الجوارح ... أو كما قلنا بعبارة أخرى ... شهادة ، وعقيدة ، وعبادة .

ونتناول كلا بكلمة إن شاء الله .



=١٣٢ ، ١٣٣ - وسار على ذلك الأئمة وفقهاء الأمصار - راجع تاريخ المذاهب لأستاذنا المرحوم محمد أبو زهرة - ٢ ص ٢٠٩ ، ٣٢٢ ، ٥٠٥ والمحلى لابن حزم جـ ١ ص ٣٨ والإيمان لابن تيمية ص ١٢٤ ، ١٢٥ وغيرها .

الركن الأول

شـــهادة اللســـان

لا إله إلا الله محمد رسول الله

.. هى الكلمة الطيبة .. التى تمتد أصلا ثابتا فى القلب ، وترتفع عملا صالحا فى السماء .

فهى ترتفع بالعمل الصالح إلى درجة القبول «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه»[1] وبغيرها لا يرتفع العمل الصالح ولا يقبل عند الله .

ويترتب على النطق بهذه الشهادة أثران :

أحدهما دنيوى ، والآخر أخروى .

---

١ ـ هذا قول الجمهور وابن عباس . راجع أعلام الموقعين جـ ١ ص ١٧١ وما بعدها ومدارج السالكين جـ ١ ص ٣٣٠ لمؤلفها ابن القيم .

أما الأثر الدنيوى ... فهو دخول الإسلام .. وعصمة الدم والمال ، ويكفر تاركها بالاتفاق[1] .

وعلى هذا تضافرت النصوص وانعقد الإجماع .

من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بى وبما جئت به ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله»[2]

ومنها ما حدث به ، أسامة بن زيد بن حارثة «بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة بن جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم قال : فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصارى فطعنته برمحى فقتلته . قال : فلما قدمنا بلغ النبى

١ـ الإيمان لابن تيمية ص ١٠٧ وغيرها ـ العقيدة الإسلامية لأبى زهرة ص ٧٤ ـ الاعتصام للشاطبى جـ ٣ ص ٢٧٨ .

٢ ـ ورد بطرق كثيرة بألفاظ مختلفة حتى قال البعض إنه متواتر ـ مختصر شعب الإيمان للبيهقى ص ٢ وما بعدها أخرج الحديث مسلم وأحمد وأبو داود والنسائى .

صلى الله عليه وسلم فقال لى يا أسامة : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟

قلت : يا رسول الله إنما كان متعوذا . قال : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ ، فمازال يكررها على حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[1] » .

ومنها ما حدث المقداد بن عمرو الكندى ـ وهو ممن شهدوا بدرا أنه قال : يارسول الله : إن لقيت كافرا فاقتتلنا فضرب يدى بالسيف فقطعها ثم لاذ بشجرة وقال أسلمت لله آقتله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتله ، قال : قلت يا رسول الله فإن طرح إحدى يدى ثم قال ذلك بعد ما قطعها آقتله ، قال لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال[2] .

هذه النصوص تتضافر لتأكيد عصمة دم ومال من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ إلا أن يصدر منه ما يستوجب

---

١ ـ متفق عليه رواه أبو هريرة .

٢ ـ رواه البخارى .

إهدار الدم أو المال على نحو ما هو مبين فى أحكام الحدود والقصاص وغيرها من النصوص الخاصة .

ومجرد القول يكفى لعصمة الدم والمال وللدخول فى الإسلام ، وليس لنا بعد ذلك أن نشق عن القلوب .. ! لقوله عليه الصلاة والسلام لخالد بن الوليد «إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم»[1] .

أما الأثر الأخروى .. فإن لا إله إلا الله ... تخرج من قالها من النار إذا ساندها إيمان ولو كان فى حجم الذرة ! !

أو هى بعبارة أخرى تحول دون الخلود فى النار إذا .. ساندها هذا القدر من الإيمان .. فليس هذا الخلود إلا للكافر ... أما استحقاق وعد الله بالجنة بغير عذاب فلا يكون إلا لمن توافر له الإيمان الحق ـ قول اللسان وعقد القلب وعمل الجوارح ! !

جاء فى الحديث : يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيره ، ثم يخرج من

---

١ ـ رواه مسلم .

النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة[1] .

وفى حديث طويل قال صلى الله عليه وسلم : ذلك جبريل أتانى فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق[2] .

ونحن إذ نورد هذه الآثار الشريفة بما ترتبه من حكم شرعى لا نفعل ذلك استهانة بصغيرة ولا اجتراء على كبيرة .. فلقد قدمنا أن الإيمان الحق الذى يترتب معه وعد الله بالجنة بغير سابقة عذاب لا يكون إلا إذا توافر مع قول اللسان عقد القلب وعمل الجوارح ـ كذلك فلقد نعلم أن الاستهانة بالصغيرة والإصرار عليها كبيرة ، والاجتراء على الكبيرة والإصرار عليها كفر تشربه القلوب وتزل به الأقدام ولقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نستهين بصغيرة وألا نجترئ على كبيرة .. !!

---

١ ـ رواه البخارى .

٢ ـ رواه البخارى .

«إياكم ومحقرات الذنوب» ثم ضرب مثلا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض فأعوزهم الحطب ، فجعل هذا يجيء بعود حتى جمعوا حطبا كثيرا فأوقدوه وأنضجوا خبزتهم ، فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بها فتهلكه[1] .

هذا عن الركن الأول من أركان الإيمان : شهادة اللسان .

وننتقل إلى الركن الثانى : عقد القلب .

---

١ ـ ذكره ابن القيم فى كتابه مدارج السالكين ـ جـ ١ ص ٢٢٤ ، ص ٢٦٥ .

الركن الثـانى

عقـد القلب

هو الأصل الثابت الذى يقر فى قلب المؤمن تصديقا بأن : لا إله إلا الله .

نفى للألوهية ... عن سوى الله .

وإثبات الألوهية لله سبحانه ..

وهو نفى للألوهية بكل عناصرها وإثبات لها بكل عناصرها .

والألوهية لا تعنى فقط إسناد الخلق والرزق إلى الله .. ولا إسناد التقدير والتدبير له سبحانه ـ لكنها تعنى مع ذلك . أن له الأمر والحكم والتشريع .

فإذا صدق المؤمن بقلبه أن لا إله إلا الله .

فإن عليه أن يصدق أن لا خالق إلا الله ، ولا مدبر إلا الله ،. ولا مشرع إلا الله .

ولم يكن الكافرون ـ على عهد الجاهلية الأولى يمارون فى الأولى ولا فى الثانية .. لكنهم كانوا يمارون فى الأخيرة «قل من يرزقكم من السماء والأرض .. أمن يملك السمع والأبصار .. ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى .. ومن يدبر الأمر ... فسيقولون الله» .

من أجل ذلك ... كان القرآن منذ مكة وقبل أن تقوم دولة الإسلام بالمدينة .. يربى المسلمين على عقيدة .. أن لا حاكم إلا الله ـ «إن الحكم إلا لله» بمعنى أن الشرع ابتداء هو لله .. وأن إسناد ذلك إلى غيره شرك بالله «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله»[1] .

وكما لا يرضى الله سبحانه أن يكون معه آلهة أخرى يخلقون ويرزقون أو يدبرون ـ فإنه لا يرضى كذلك أن يكون معه آلهة يشرعون ...

ومن هنا فإن شرع الله لا يقبل التجزئة ـ فلا يطبق بعضه

---

١ ـ يقول الإمام ابن كثير فى تفسيره القرآن العظيم «أى لا يتبعون ما شرع الله من الدين القويم بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم .. وتحليل ..» جـ ٤ ص ١١١ .

فى مجال ويترك المجال الآخر لغير الله ممن سماهم القرآن «آلهة» أو «أربابا» .. «.. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ..» .

ولا يكفى لتحقق الإيمان .. تحقق العلم .. بل لابد مع علم القلب من عمل القلب .. وبه يتميز المؤمن على الكافر ، ويمتاز البر من الفاجر .. وعمل القلب حياة له .. تتحقق معه «روح» الإيمان بعد تحقق «هيكله» ..

حياة القلب فى تحركه .. حبا لله وذلا له وحده . استشعارا لصفاته العليا وأسمائه الحسنى ، وإحساسا بنعمه علينا منذ ظلمات البطن إلى ظلمات القبر .. وتقبله لنا مع جهلنا وجهالتنا .

«عبدى .. وعزتى وجلالى .. إن أتانى ليلا قبلته وإن أتانى نهارا قبلته ، وإن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ، وإن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ، وإن مشى إلى هرولت إليه ، وإن استغفرنى غفرت له ، وإن استقالنى أقلته ، وإن تاب إلى تبت عليه ، من أعظم منى جودا وكرما ، وأنا الجواد الكريم ؟ .. عبيدى يبيتون يبارزوننى

بالعظائم ، وأنا أكلؤهم فى مضاجعهم وأحرسهم فى فرشهم ، من أقبل إلى تلقيته من بعيد ، ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد ، ومن تصرف بحولى وقوتى ـ ألنت له الحديد ، ومن أراد مرادى أردت ما يريد ، أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لاأقنطهم من رحمتى ، إن تابوا إلى فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب» .(١)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى»(٢) .

ويقول فيما يرويه عن رب العزة :

« يا عبادى .. إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى ... كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى .... كلكم جائع إلا من

---

١ ـ رواه أحمـــد .

٢ ـ أخرجه الترمذى .

أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى .. كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى ... إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى .. لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى ... لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى .. لو أن أولكم وآخركم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى .. إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .[1]

ومع حب الله رجاء فيه .. يهز القلب الهامد وينعشه بالأمل فيمن لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء فيمن

١ ـ رواه مسلم .

وسع كل شيء رحمة وعلما «إن رحمة الله قريب من المحسنين» .

«أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى» . وما افتقد شيئا من وجد الله ، وما وجد شيئا من افتقد الله !

ومع رجاء الله خوف من الله .... «الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ..» استشعارا لعظمته وجلاله .. وخوفا من بطشه وعقابه .. والنفس لا يصلحها إلا رغبة ورهبة .. رجاء وخوف .. وعلى هذين المدارين تحسن الصلة بالله .. «يرجون رحمته ويخافون عذابه ..» «نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم» .

ومع الرجاء والخوف توكل على الله واعتصام به «وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون» .

وإذا صح أن توجد مع مشاعر الحب والرجاء مشاعر لغيره لا ترتفع إلى نفس المستوى .. فإنه لا يصح أن يوجد مع التوكل على الله توكل على غيره لأنه وحده هو الحسب والكافى .

«ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله .. سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون» .

فقد جعل الإيتاء لله ورسوله فى الأول والآخر ، أما الحسب فجعله قاصرا على الله وحده لا يشاركه فيه حتى رسوله !

وعلى هذا المعنى ينبغى فهم قول الله «يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين» ومعنى الآية يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله كذلك ...[1] .

هذه مشاعر أساسية .. هى حياة لقلب المؤمن . ومعها مشاعر أخرى .. وجل القلب إذا ذكر الله ، وزيادة الإيمان إذا تليت آياته ، ولاية المؤمنين ومحبتهم ، وعداوة أعداء الله وكراهيتهم .

ولقد ضل الذين عاشت قلوبهم جافة صلدة .. محرومة من هذه الحياة ! وضل قبلهم الذين ظنوا أنهم يصح لهم إيمان بغير هذى الحياة !

---

١ ــ فى هذا المعنى الإمام ابن تيمية فى رسالة العبودية ص ٧٣ وما بعدها .

ويرد بعد الإيمان بالله .. الإيمان باليوم الآخر .

وهو يقين يقر فى مشاعر المؤمن فيصبغ حياته بالجد ، وعمله بالإخلاص ، ويعطيه النظرة الأبعد ، ثم هو يربى فى المؤمن حارسا من داخله يقظا لا ينام إن نام الحراس .. وذلك لا يمنعه بغير شك من أن يأخذ نصيبه من الدنيا ، ولكن الدنيا تصير فى يده وليست فى قلبه .. وسيلة وليست غاية .. طريقا وليست منتهى «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرى ولا تنس نصيبك من الدنيا» .

واذا صح لنا فى مجال العقيدة أن نستدل بما لم يكن متواترا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنا نسوق قوله عليه الصلاة والسلام «من أصبح والآخرة أكبر همه ، جمع الله شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن أصبح والدنيا أكبر همه ، فرق الله عليه ، وجعل فقره بين عينه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له»[1] .

من أجل ذلك وجدنا الحديث عن اليوم الآخر يأتى ردف

---

١ ـ رواه الترمذى .

الحديث عن الله سبحانه لأنه فى مجال الإيمان يمثل الثقل الثانى فى حس المؤمن ويقينه .. وهو ما يفسر تركيز القرآن المكى فى الحديث عنهما لتتردد النفس التى ألهمت الفجور والتقوى ، بين الرغب والرهب ، والخوف والرجاء .. فتقبل بعد ذلك على تنفيذ ما تؤمر به أو تنهى عنه من غير حاجة إلى أجهزة رقابة وتجسس ! ولقد قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها «إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ، ولو نزل لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنى أبدا[1] » .

ومع الإيمان بالله واليوم الآخر إيمان بملائكته وكتبه ورسله ثم إيمان بالقدر .. خيره ، وشره ...

وفى الإيمان بقضاء الله وقدره .

نقول : إنه يقين بأن «والله خلقكم وما تعملون»

«وما تشاءون إلا أن يشاء الله» .

---

١ ـ رواه البخارى .

«قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون» .

ثم .. «إن الله قد أراد بنا شيئا ، وأراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا»[1]

ثم .. «إن الله أمر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، وكلف تيسيرا ولم يعص مغلوبا ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثا ، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا .. «ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار»[2] .

واليقين .. عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة للقلب وطمأنينة ، وهو من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه» .

ولسنا نخوض بعد ذلك فى مسائل القضاء والقدر مما ليس

---

١ - قالها الإمام الصادق - راجع العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن ص ٥٦ للإمام الراحل محمد ابو زهرة .

٢ - قالها الإمام على رضى الله عنه - راجع العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن ص ٥٥ للإمام الراحل محمد أبو زهرة .

فى لب الاعتقاد ، كما غرق فيها البعض فشغلوا بما أراده الله بنا عما أراده الله منا .. فما كان خيرا لنا ولا لهم ، وما نرى ذلك إلا خلافا لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه ، قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمر وجهه ، وقال : أبهذا أرسلت إليكم ، إنما أهلك من قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ـ عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه» ، وما رواه جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يكون فى آخر الزمان قوم يعملون المعاصى ثم .. يقولون الله قدرها علينا الراد عليهم يومئذ كالشاهر سيفه فى سبيل الله»[1] .

ويتوافر علم القلب وعمله .. فى كافة عناصر الإيمان يتوافر اعتقاد القلب كركن ثان من أركان الإيمان الحق ويبقى الركن الثالث : عبادة الجوارح .

---

١ ـ العقائد الإسلامية ـ سيد سابق ص ٩٩ .

الـــركن الثـــالث

عبـــادة الجـــوارح

ارتفعت عبادة الله مع شهادة التوحيد شعارا لكل المرسلين .

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »

وهى غاية الوجود الإنسانى كله « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »

وهى التى توج الله سبحانه وتعالى إحسانها قمة فوق الإسلام والإيمان « ما الاحسان ؟ .. « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1]

---

١ ـ جزء من حديث رواه البخارى ـ وراجع مدارج السالكين لابن القيم ج ١ ص ١٠٣ .

والعبادة فى أصل معناها : الذل ، يقال طريق معبد إذا كان مذللا وطأته الأقدام ، ولقد استخدمت فى القرآن بمعناها اللغوى فى موضعين ـ فى قوله تعالى :

«وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل»

وقوله :

«وقومهما لنا عابدون» .

فالأولى بمعنى الذل .. والثانية بمعنى الخضوع ..[1]

وهى اصطلاحا خليط من هذا وذاك فوق معنى المحبة وسائر المشاعر التى أشرنا إليها عند الحديث عن عمل القلب .. وهى بالنسبة للأعمال الصالحة شاملة لكل الأعمال فى كل الجوانب .. وتقوم عبادة الجوارح على ركنين :

ركن معنوى : هو مع المشاعر السابقة ابتغاء وجه الله فى كل عمل ويحكمه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

«إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن

---

١ ـ العبودية لابن تيمية ص ٩ ـ ١١ .

كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .[1]

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه» .[2]

ركن مادى : هو الفعل نفسه .. ويلزم أن يكون على النحو الذى أمر به الله ورسوله ، لأن الله لا يعبد إلا بما شرع ، ويحكم هذا الركن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أى فهو مردود باطل[3] .

فالذى يريد أن يصلى الصبح ينبغى فوق أن تكون وجهته وغايته هو الله .. ينبغى أن يؤديه على ما أمر به الله ورسوله ـ

---

١ ـ الصحيحان ـ وراجع تفصيلا للشاطبي فى الموافقات ج ٣ ص ٢٠٢ ـ ٢٢٦ .

٢ ـ رواه أبو داود والنسائى .

٣ ـ رواه مسلم وفى رواية متفق عليها «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» روته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

فيصليه ركعتين ولا يصليه أربعا أو خمسا ـ فإن فعل كان عمله باطلا ولو كانت نيته حسنة أو خالصة لله .

كذلك من أراد إصلاحا للأمة وتوافر لديه حسن القصد ونبل النية فإنه لا يكفيه ذلك ـ إلا أن يصلحها بمنهاج الله الذى شرعه لها ، فإن راح مع حسن قصده ونبل نيته يستورد لها الأنظمة والشرائع من عند غير الله .. فإن عمله باطل ومردود ، ومن هنا يبطل سعى كثير من الناس وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .. !

ويجمع هذين الركنين قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا » .

وقال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .

قال : أخلصه وأصوبه . قالوا يا أبا على : ما أخلصه وأصوبه ، قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل .. حتى

يكون .. خالصا .. صوابا .. والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة ثم قرأ قوله تعالى :

«فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا»[1] .

وعبادة الله على النحو السالف تحقيق لشهادة التوحيد :

لا إله إلا الله محمد رسول الله .

فالشق الأول يعنى إفراد الله سبحانه بالعبادة بخلوص المشاعر والوجهة له .

والشق الثانى يعنى أن محمدا هو المبلغ عن ربه فهو الذى يصدق خبره ويطاع أمره ويتبع شرعه .

فكما أننا طبقا للشق الأول نتجه بمشاعرنا ووجهتنا إلى الله .

فإننا طبقا للشق الثانى نتبع الرسول فيما جاء به من ربه ـ

---

١ ـ العبودية لابن تيمية ص ٤٩ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١١٩ ، ومدارج السالكين لابن القيم جـ ١ ص ٨٣ ، ١٠٥ ، جـ ٢ ص ٨٩ .

فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه .[1]

والعبودية التى هى تحقيق لشهادة التوحيد هى العبودية الحقة ... أو العبودية الخاصة أو عبودية الألوهية ، وهى التى يتميز بها المؤمن من الكافر ، والبر من الفاجر ، وأهل الجنة من أهل النار .

وفى ظل هذا نفهم النصوص الآتية :

«يا عبادى لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون»

«فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه»

«وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا»

وقول إبليس لربه «لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين»

وقول الله له «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» .

فهذا اللون من العبادة «الخاصة» تتحقق به العبادة «الحقة» .

---

١ ـ العبودية ص ٤٩ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١١٩ ، مدارج السالكين لابن القيم جـ١ ص ٨٣ ، ١٠٥ ، جـ٢ ص ٨٩ .

وبالتالى يتحقق الإيمان الحق .

على أنه إذا كانت العبودية السابقة رغبا واختيارا فإن الجميع خاضع لعبودية قاهرة تتمثل فى خلقه وإماتته دون إرادة منه ، وهى ناجمة عن ربوبية الله للكون . ربوبية خلق وتعهد وقيام ، وهذه عبودية عامة أو عبودية ربوبية يقر بها المؤمن والكافر ويستوى فيها البر والفاجر .

ويمكن أن يفهم فى ظل هذه المعانى قول الله :

«إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا»

«ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء»

«قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون»

«وما الله يريد ظلما للعباد»

«إن الله قد حكم بين العباد»

ونظير العبودية القنوت والسجود (بمعنى الخضوع والذل) فإنه هو الآخر ينقسم إلى عام وخاص .

واذا كانت عبادة الجوارح هى العنصر الثالث من عناصر الإيمان ـ فهى تتسع باتساع الحياة .. لتكون الحياة كلها ، وليس المسجد وحده ـ محرابا يعبد فيه الله بخطرة القلب وهمسة الفكر .. بطلقة المدفع وسجدة الجبين .. وكما كانت الصلاة عمود الدين ، فالجهاد ذروة سنامه .. وكما كانت الزكاة صدقة ، فإن الكلمة الطيبة صدقة ، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة .. وظمأة فى سبيل الله جهاد ، وجوعة فى سبيل الله جهاد ، وسجن فى سبيل الله جهاد ، وقتل فى سبيل الله جهاد ، «ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين .. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون» .

فهى بذلك ليست كما ظن البعض مجرد أداء الشعائر .. وكفى .. فإن الله لا يرضى أن يعبد فى المسجد ويعبد غيره فى غير المسجد .. فلابد من إقامة شرائعه مع شعائره فى النفس وفى الناس .. فذلك هو مقتضى الإيمان الحق الذى جاء به

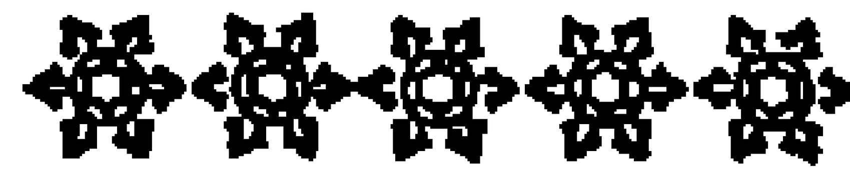
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد فرط البعض فى ذلك الجانب الهام من جوانب الإيمان ـ كما فرطوا فى جانب الاعتقاد .. فكانت قولتهم الفاجرة ـ لا يضر مع الإيمان معصية ... وأطمعوا بذلك الفجار والفساق فى رحمة الله .

كذلك أفرط البعض فرتب الكفر على ترك بعض الشرائع أو ارتكاب بعض المعاصى .. أو جعل صاحبها فى منزلة بين المنزلتين .. وأيأسوا بذلك الناس من رحمة الله .

ونشير إلى هؤلاء المفرطين والمفرطين .. ليستبين سبيل الله قويما وصراطه مستقيما بين تلك السبل .

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .



القسم الثاني

الإيمان .. بين تفريط وإفراط

الإيمـــان

بـين تفـريط وإفــراط

مع كل وسط أمثل .. إفراط وتفريط ...

ومع الحياة القوام .. إسراف وتقتير ...

من هنا وجب بيان الإفراط والتفريط ... ليستبين صراط الله .. وتستبين سبل المجرمين .

أولا ـ تفريط فى الإيمان

كما كان إفراط .. كفرت به بعض الفرق المسلمين ـ كما سيبين بمشيئة الله ـ كان تفريط كفرت به بعض الفرق :..

أو كادت [1] !!

---

١ ـ كفر الفرق التى قصرت الإيمان على علم القلب الإمام أحمد بن حنبل وجمع من الفقهاء ، واعتبر ابن تيمية قول قائلهم « لا يضر مع =

فبعض الفرق يقصر الإيمان على علم القلب[٢] .

بمعنى أنهم يكتفون فيه بمجرد العلم بوجود الله وصفاته وأسمائه .. دون أن يذهبوا إلى اشتراط عمل القلب من محبة الله وخشية الله ، والتوكل على الله ...

وهؤلاء مردود عليهم . بأن ذلك القدر من الإيمان يتساوى فيه أبو بكر رضى الله عنه وإبليس لعنه الله . ولهذا وصف إبليس بالإباء والاستكبار ولم يوصف بالجهل أو عدم العلم .

كذلك فأولئك أهملوا نطق اللسان كجزء من الا· وتاركه كافر بالاتفاق .

كما شاركوا مع سائر المفرطين فى إهمال عمل الجوارح كجزء من الإيمان .

وبعض الفرق الأخرى قصرت الإيمان على قول

=الإيمان معصية ، كفرا صريحا ـ الإيمان لابن تيمية ص ٤٨ ، ٧٢ ، ٧٥ ـ تاريخ المذاهب جـ ١ ص ١٤٤ فقرة ٣١ .

٢ ـ ذاك قول الجهمية أتباع جهم بن صفوان .

اللسان ..[1] وهؤلاء أهملوا اعتقاد القلب وعمل الجوارح ، وتخلف اعتقاد القلب مفض إلى الكفر بغير خلاف .. ولذا كان المنافقون ـ الذين ينطقون بالشهادة ويتخلف عندهم الاعتقاد ـ تحت الجاحدين لها ـ فى الدرك الأسفل من النار .

ولعل هذه الفرق وتلك قد اندثرت ... شأن كل نشاز مجاف للفطرة !!

لكن بقيت قولتهم الفاجرة «لا يضر مع الإيمان معصية» .. مبررا لأولئك الذين صاروا عبيدا للمعاصى والشهوات ، وبقى قول معتدليهم إن الإيمان تصديق القلب لقول اللسان مبررا لأولئك الذين أهملوا شريعة الله فلم يقيموها فى أنفسهم ولا بين الناس !!

وفى رد جامع على هؤلاء ، وأولئك نقدم الدليل على أن ـ إقامة شريعة الله فى النفس والناس ، هو مقتضى الإيمان الحق .

١ ـ كان للقرآن حديث عن الأرباب .. دل فيما دل

---

١ ـ ذاك قول الكرامية .

عليه أنه لا يلزم أن تكون هذه الأرباب أصناما من الحجر ... إنما يمكن أن تكون تلك الأصنام من دون الله أصناما من البشر .. إن الصورة الأولى صورة بدائية لا نحسب البشرية بعد ما شبت عن طفولتها يمكن أن ترتد إليها مرة أخرى ، إنما الصورة الثانية تردت فيها البشرية ولا تزال إلى اليوم تتردى» ! !

ولقد تحدث القرآن عن قوم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وعجب أحد الصحابة أن يكون البشر ربا دون أن يركع له ويسجد فأفهمه رسول الله صلى الله عليه وسلم جانبا خطيرا من جوانب العبادة يغفل عنها الكثيرون قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«ولكنهم أحلوا لكم الحرام ، وحرموا عليكم الحلال فأطعتموهم فتلك عبادتكم إياهم»[1] .

---

١ ـ لما حضر عدى بن حاتم وكان قد تنصر فى الجاهلية دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم» ، فقال يارسول الله ما عبدناهم ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم «بل إنهم حرموا عليكم الحلال وأحلوا=

من أجل ذلك كانت شهادة الإسلام نفيا ثم إثباتا .. نفي ـ الألوهية عن غير الله من أولئك الذين يحرمون ويحللون ، ويشرعون ما لم يأذن به الله ثم إثبات الألوهية لله بكل عناصرها .. خلق ورزق ، تقدير وتدبير ، حكم وتشريع ..

وكانت صيحة القرآن منذ مكة تثبيتا لهذه العقيدة «إن الحكم إلا لله» بمعنى أن الشرع ابتداء هو لله وإن جاز للبشر أن يشرعوا فذلك ابتناء لا ابتداء أي تفريعا واستنباطا من شرع الله ...

٢ ـ اعتبر القرآن التشريع من دون الله افتراء للكذب على الله .. لما في هذا العمل من اعتداء على سلطان الله في الأرض .. «وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله» وقد نفى الإيمان في آية أخرى ـ عمن يفتري الكذب ... وهكذا تجري الآيتان الكريمتان :

=لكم الحرام فاتبعتموهم فتلك عبادتكم إياهم» رواه أحمد والترمذي وابن جرير من طريق .

«ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب»

«إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله»

٣ ـ فى آيات كريمة من سورة النساء تجعل رد الأمر إلى الله والرسول ـ بتطبيق كتابه وسنة رسوله ـ شرطا للإيمان بالله واليوم الآخر .

«فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنت تؤمنون بالله واليوم الآخر» .

ثم تعتبر التحاكم إلى غير الله تحاكما إلى الطاغوت يصير معه الإيمان مجرد «زعم» .

«ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به» .

ثم تنتهى الآيات الكريمة إلى نفى الإيمان عمن لا يحكم الله ورسوله بإقامة شريعة الله التى جاء بها الكتاب والسنة .

«فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا

يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما»[1]

٤ ـ فى آيات كريمة من سورة المائدة ـ حديث عن إقامة حكم الله .

* يدمغ الإعراض عن حكم الله .. بالكفر ، والظلم ، والفسق ومع هذا ينتفى الإيمان أو يعتوره نقص كبير ! !

* ثم يجعل الأمر بين إقامة شرع الله وحكمه .. أو إقامة حكم الهوى .

بين إقامة حكم الله ... أو قيام الفتنة
بين إقامة حكم الله ... أو إقامة حكم الجاهلية .

عن الأولى قول الله :

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون»

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون»

ولقد حلا للبعض أن يقول إن الآيات الكريمة تتحدث

---

١ ـ راجع عرضا شيقا لهذه المعانى فى أعلام الموقعين ج ١ ص ٥٠ ، ٥١ لابن القيم .

عمن يحكم بغير ما أنزل الله من اليهود والنصارى باعتبار أن الآيات جاءت تعقيبا على الحديث عما فى التوراة والإنجيل وردا على هؤلاء نقول :

١ ـ إن العبرة ـ كما يقول علماء الأصول ـ بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب .

٢ ـ إنه ـ لا يتصور عقلا ـ أن يكون اليهود والنصارى إذا حكموا بغير ما أنزل الله كافرين وظالمين وفاسقين ويكون ـ المسلمون إذا حكموا بغير ما أنزل الله مؤمنين عادلين !!

كذلك فإننا نرى مع بعض المفسرين أن الآيات تتحدث عن فعل واحد هو الحكم بغير ما أنزل الله ، ثم تعدد الوصف له مرة بالكفر ، ومرة بالظلم ، ومرة بالفسق ـ ولئن وردت هذه الألفاظ فى القرآن أحيانا بمعنى واحد إلا أن المغايرة مع ورودها وصفا لفعل واحد تدل على أن معانى هذه الألفاظ مختلفة وإن وردت وصفا لفعل واحد .

والحكمَ بغير ما أنزل الله وإن كان فعلا واحدا . إلا أنه يمكن أن يكون صورا متعددة .

فالذى يشرع غير شرع الله .. يحكم بغير ما أنزل الله .

والذى يقضى بغير شرع الله .. يحكم بغير ما أنزل الله ..
والذى يطيع وينفذ غير شرع الله ، يحكم بغير ما أنزل الله .

ومسئولية هؤلاء جميعا قائمة .. لكنها ليست على مستوى واحد ! !

كذلك فالمسئولية فى كل مستوى من هذه المستويات ليست واحدة .. تبعا للقصد والنية ! !

= وعن الثانية قول الله :

«وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه .. فاحكم بينهم بما أنزل الله .. ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ـ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» .

«وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم .. واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك .. فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون» .

«أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون» .

٥ ـ فى آيات سورة النور ربط بين إقامة حكم الله وبين توافر الإيمان ، وبين الإعراض عن شرع الله وانتفاء الإيمان تبدأ الآيات بنفى الإيمان ، وتنتهى بإثبات الظلم وبين هذا وذاك بحث فى القلب وتساؤل :

أفيه مرض ؟

أفيه ريبة وشك ؟

أم خوف من ظلم يقع من الله ورسوله ؟

«ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا .. ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون .. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين» .

أفى قلوبهم مرض ؟

أم ارتابوا ؟

أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله .. ؟

.. بل أولئك هم الظالمون ..

ثم .. يبين طبيعة «المؤمن» وسلوكه .. إذا دعى إلى حكم الله ورسوله .

ليس سوى .. «سمعنا وأطعنا» .

وبذا يتحقق له :

الفوز والفلاح .. فى الدنيا وفى الآخرة إن شاء الله .

«إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون» .

«ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون»[1] .

٦ ـ ولئن كانت إقامة شرع الله فى النفس وفى الناس .. هو الإيمان الحق وهو العبادة الحقة فلقد أشار الكتاب والسنة بعد هذا العموم إلى أعمال خاصة أداؤها من الإيمان ، وتركها ينتقص منه أو ينفيه ـ من ذلك قوله تعالى :

«إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا

---

١ ـ النور ٤٧ ـ ٥٢ .

وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله»[1]

وأشارت الآية إلى اعتقاد القلب (آمنوا بالله ورسوله) ثم إلى عمل القلب (لم يرتابوا) ثم جانبا من عمل الجوارح ـ (جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) ، وجعلت ذلك كله من الإيمان .. بل قصرت الإيمان على ذلك ببدئها الآية الكريمة بلفظ يفيد القصر والحصر «إنما المؤمنون» ولا بأس من ذلك فالجهاد بالنفس والمال يستوعب حياة المؤمن كلها :

وفى آية أخرى شرعت أدبا جميلا من آداب المؤمن مع جماعته أن يستأذن :

«إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه» .[2]

وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أشار إلى أعمال عدها من الإيمان ، وجعل أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق[3] .

---

١ ـ الحجرات .

٢ ـ النور ٦٢ .

٣ ـ مختصر شعب الإيمان للبيهقى .

ولقد استطاع بعض السلف الصالح أن يجمع ما فى القرآن والسنة من أعمال صالحة فوجدها تسعا وسبعين شعبة ...، وصدق الله ، وصدق رسول الله .. [1]

وفى حديث عدد أركان الإسلام (المعروفة) وعدها من الإيمان وزاد عليها أعمالا أخرى .. ولا غرو فالإيمان يستوعب الإسلام ويزيد عليه ففى حديث عبد القيس «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع :

آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله : قالوا : الله ورسوله أعلم قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت وأن تعطوا من الغنم الخمس وأنهاكم عن ...» [2]

وفى نفى الإيمان .. عمن لا يتوافر له «عمل القلب» من حب لله وخوف منه ، واعتصام به ، وتوكل عليه ...

قول الله :

---

١ ـ عدها الإمام الحافظ أبو حاتم بن حيان ـ المرجع السابق .

٢ ـ الصحيحان ومختصر شعب الإيمان للبيهقى .

«قالت الأعراب آمنا .. قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا .. ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم» .

ونفيه عمن تولى عن حكم الله وشرعه ـ وقد تقدم .

ثم نفيه عمن يقارف ما نهى الله عنه من أعمال «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ..»[1] .

«إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه فإذا أقلع رجع إليه»[2] .

ولقد أكد عمل الرسول قوله .. فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يشهد لأحد بالإيمان حتى يؤدى الفرائض[3] .. فلم يكتف عليه الصلاة والسلام باعتقاد القلب كما قال جاهلون ، ولا بقول اللسان كما قال آخرون ، ومن هنا كان إجماع أهل السنة على أن الإيمان .. اعتقاد

---

١ ـ من حديث رواه الصحيحان .
٢ ـ أخرجه أبو داود والحاكم بسند صحيح عن أبى هريرة مرفوعا .
٣ ـ الإيمان لابن تيمية ص ٥٢ .

القلب ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح .

ولعلنا لا نترك الحديث عن التفريط فى الإيمان حتى نشير إشارة عابرة إلى أولئك الذين احتجوا بالقدر ليبرروا إعراضهم عن شرع الله ، واقترافهم لما حرم الله .. محتجين بأن الله قد أراد لهم ذلك ، ولا حجة لهم لأنه لا حجة عندهم أن الله أراد لهم ذلك ،. وهم يضاهئون فى ذلك قول الكافرين «وقالوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء» ، وقد رد القرآن عليهم افتراءهم «قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ...» .

ولا تزال عقولهم التى فى رءوسهم .. حجة عليهم كما لاتزال شريعة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. حجة عليهم !!

كذلك .. قال البعض بسقوط التكليف .. ليمتنع عن الصلاة وليقارف المحرمات ...

وهؤلاء من المنحرفين لا يحتاجون إلى كثير رد . فهم بقولهم قد ارتدوا عن الإسلام ــ كما ذهب ابن تيمية ، وابن

القيم[1] .. ولو كان التكليف يسقط عن أحد لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بذلك ، لكن ربه قال له «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» ومن أسف أنهم لم يفهموا أن معنى «اليقين» فى الآية الكريمة (الموت) ... فقالوا إن العبادة واجبة حتى يبلغ اليقين أو يشهد الحقيقة ، ثم يسقط عنه التكليف والعبادة بعد ذلك !!

ثانيا : إفراط فى الإيمـــان

كما كان انحراف ذات اليسار إلى التفريط ، كان انحراف ذات اليمين إلى الافراط .

وكان هذا وذاك انحرافا عن الجادة والوسط الأمر والطريق المستقيم .. الذى أراده الله لعباده لا ترى فيه عوجا ولا أمتا !!

ولقد كان للإفراط صورتان رئيسيتان .. تكررتا ولا تزال إلى اليوم تتكرر .

---

١ ـ العبودية لابن تيمية ص ٤١ وابن القيم فى مدارج السالكين ج ٢ ص ٤٧٧ .

صورة بالغ أصحابها فى شأن ترك العمل والواجب أو مقارفة الحرام المنهى عنه .. فكفروا الناس وأيأسوهم من رحمة الله .. وصورة بالغ أصحابها فى شأن أداء الشعائر .. حتى تعدوا عن سائر الواجبات .. بل قعدوا عن الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام ! ونعالج كل صورة بكلمة .

الصورة الأولى : صورة التكفير :

لعلها بدأت . منذ ابتلى الإسلام بفرقة الخوارج لكن صورتهم تكررت .. وتتكرر !!

ولقد ظهر الخوارج مناصرين لعلى رضى الله عنه فى حربه ضد معاوية رضى الله عنه ، ولكن ما إن قبل على رضى الله عنه التحكيم بينه وبين معاوية حتى ثاروا غير فاقهين رافعين شعار «إن الحكم إلا لله» فأساءوا التطبيق .. وكانت حروبهم ضارية لم تنته إلا بفنائهم !

ومن الإنصاف أن نسجل أن أحدا لم يطعن فى إخلاص هذه الفرقة ، بل لقد كان إخلاصهم يدفعهم إلى مزيد من التنسك والتعبد حتى لقد قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عناهم بقوله : «.. فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته

مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تـراقيهـم ، يمرقـون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية »[1] .

لكن إخلاصهم لم يعصمهم من الضلال ، إذ انحرفت عقولهم عن الفقه الصحيح للكتاب والسنة يؤكد ذلك ما روى حين اجتمع بعضهم للخروج على على رضى الله عنه ، فجعل الرجل يأتيه يقول له : «يا أمير المؤمنين إن القوم خارجون عليك .. قال : دعهم حتى يخرجوا ، حتى كان ذات يوم فدخل عليهم الصحابى الجليل ابن عباس وهم قائلون (أى مستريحون فى القيلولة ـ أى وقت الظهيرة) فإذا هم مسهمة وجوههم من السهر ، من أثر السجود فى جباههم ، كأن أيديهم ثفن الإبل (أى خشنة) عليهم قمص مرحضة (أى مستعملة) ، فقالوا ما جاء بك يا ابن عباس وما هذه الحلة عليك . قال : قلت وما تعيبون منى ذلك فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنية ، قال ثم قرأت هذه الآية الكريمة :

---

١ ـ الاعتصام للشاطبى ج ٣ ـ ص ٤٥ .

«قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» ـ فقالوا : ما جاء بك ، قال : جئتكم من عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيكم منهم أحد ، ومن عند ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله ، جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم ، فقال بعضهم : لا تخاصموا قريشا فإن الله يقول «بل هم قوم خصمون» . فقال بعضهم : بل فلنكلمه . قال : فكلمنى منهم رجلان أو ثلاثة ، قال : قلت ما نقمتم عليه ؟ قالوا : ثلاثا . فقلت ما هى ؟ قالوا : حكم الرجال فى أمر الله والله يقول «إن الحكم إلا لله» . قال : قلت هذه واحدة ، وماذا أيضا ؟ قالوا : فإنه قاتلهم ولم يسب ولم يغنم ، فلئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم ، ولئن كانوا كافرين حل قتالهم وسبيهم ، قال : قلت وماذا أيضا ؟ قالوا : ومحا نفسه من إمرة المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين ، قال : قلت أرأيتم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله ، ما ينقض قولكم هذا أترجعون ؟ .. قالوا : وما لنا لا نرجع ؟ قلت : أما قولكم حكم الرجال فى أمر الله فإن الله قال فى كتابه «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا

الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم» وقال فى المرأة وزوجها «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها» فصير الله ذلك إلى حكم الرجال ، فناشدتكم الله : أتعلمون حكم الرجال فى دماء المسلمين وفى إصلاح ذات البين أفضل أم فى ثمن أرنب ثمنه ربع درهم وفى بضع امرأة ؟

قالوا : بلى هذا أفضل .

قال : أخرجتم من هذه ؟ قالوا نعم .

قال : وأما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغنم أتسبون أمكم عائشة ؟ فإن قلتم نسبها فنستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم .. وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم ، فأنتم ترددون بين ضلالتين .

أخرجتم من هذه ؟ قالوا نعم .

قال وأما قولكم محا نفسه من إمرة المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون ، إن نبى الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو ما نعلم

أنك رسول الله ، ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك . قال رسول الله اللهم إنك تعلم أنى رسولك ، يا على أكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو » .

فرجع منهم ألفان ، وبقى بقيتهم ، فخرجوا فقتلوا جميعا[1] .

ولقد كانت لقولة الخوارج بكفر مرتكب الكبيرة ... صدى ـ مازال يتردد ويصطبغ بأشكال أخرى فيوصم بالكفر من ينقض بيعة ، أو يترك جماعة ، أو يمتنع عن الهجرة أو . .

وأهل السنة بغير خلاف ـ على أن تارك العمل بغير جحود ترك واجبا أو قارف محرما ـ لا يكفر (كفرا مخرجا من الملة) ، وإن تنازعوا بعد ذلك فى إطلاق اسم الإيمان عليه .

ونشير إلى هذين الأمرين :

---

١ ـ الاعتصام للإمام الشاطبى ـ طبعة أولى ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٣ م مطبعة المنار بمصر ـ ج ٣ ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

١ ـ تارك الواجب من غير جحود ، ومرتكب الكبيرة من غير استحلال ـ ليس بكافر :

.. لأن كثيرا من النصوص التى نفت الإيمان أو أثبتت الكفر ورد فى مقابلها نصوص تثبت الإيمان ـ فمثلا ورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا إسلام لمن لا هجرة له» وقوله «أنا برىء من كل مسلم أقام بين ظهرانى المشركين» ، وورد فى مقابل ذلك تسمية القرآن لمن لم يهاجر مؤمنا «والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء» ونفس الحديث سمى غير المهاجر مسلما ، فضلا عن أن وفد ثعلبة لما قدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : «إنا رسل من قبلنا من قومنا ونحن مقرون بالإسلام» ، وقد قيل لنا أنك تقول «لا إسلام لمن لا هجرة له» فقال : «حيثما كنتم اتقيتم فلا يضركم»[١] .

.. ووردت نصوص فيمن لم يبايع قد تفيد نفى الإيمان

---

١ ـ نور اليقين للمرحوم الشيخ محمود الخضرى ص ٢٢٩ ، والمحلى لابن حزم ج ١١ ، ص ١٩٨ .

عنه مثل قوله عليه الصلاة والسلام «من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» ...

وفى مقابلة ذلك .. فهم كثيرون معنى الجاهلية : حالة الفوضى بغير إمام وليست حالة الكفر[1] ، وفوق ذلك وردت نصوص تثبت الإسلام لمن لم يبايع وأكدها عمل الرسول عليه الصلاة والسلام ـ فقد قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا قد أسلموا ولم يبايعوا ، فوجدوا جنازة يصلى خلفها الرسول وأصحابه فلم يصلوا ، فلما سألهم الرسول عليه الصلاة والسلام عن سبب امتناعهم قالوا : حتى نبايعك .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «أينما أسلمتم فأنتم مسلمون»[2] .

ولقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب على نجاشى الحبشة لما مات ، وهو وإن أسلم لم يهاجر ، ولم يبايع ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لا يصلون

---

١ ـ نور اليقين للمرحوم الشيخ محمود الخضرى ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

٢ ـ رواه البخـــارى .

على كافر أو غير مسلم «ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله» .

وعلى عهد الصديق أبي بكر .. تريث على رضى الله عنه فى بيعة أبى بكر وقتا ليس بالقصير .. ولم يخرجه أحد بهذا العمل من الإسلام ، كذلك امتنع سعد بن عبادة عن البيعة وظل ممتنعا حتى مات ـ فما قال أحد ولا جرؤ أن يقول إنه كافر .

.. قدمنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفى فيه الإيمان عن الزانى والسارق والشارب .. وجاء كذلك قوله «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر» ، وفى مقابلة ذلك سمى القرآن المقتتلين مؤمنين «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل لأبى ذر الغفارى : ذلك جبريل أتانى فقال من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ـ قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق .

.. وردت نصوص تخرج المفارق للجماعة من ربقة الإسلام وجاء فى مقابلها قول حذيفة بن اليمان لرسول الله

صلى الله عليه وسلم فإن لم يكن جماعة ولا إمام فقال : فاعتزل هذه الفرق كلها .. فلو كانت الجماعة لازمة يكفر تاركها ما أمكن وجود زمان لا جماعة فيها ولا إمام !!

ولقد اختلفوا فى معنى الجماعة المقصودة بالأحاديث إلى أقوال عديدة بلغت فيما علمنا إلى خمسة ، وما ثار فيه الخلاف لا يمكن أن ينبنى عليه الكفر .. لأن الكفر لا يكون إلا بيقين ـ إذ ما ثبت بيقين لا يزول إلا بيقين !

.. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لم يطبقوا حد الردة فيمن زنى أو سرق أو قتل أو لم يبايع أو لم يهاجر ... الخ ... ولم يمنعوا إرثه ... ولو كان يخرج من الإسلام بمثل هذا لما امتنعوا عن تطبيق أحكام الردة عليه .

.. وأخيرا فإن نفىَ الإيمان وإثبات الكفر فى بعض النصوص لا يعنى نفى كل الإيمان .. فإن للإيمان أصلا وفروعا .. أصله فى القلب ، وفروعه على الجوارح .. ونفى الفرع لا يعنى نفى الأصل .

فالإيمان درجات والكفر درجات ، وليس ما يمنع أن يجتمع مع الإيمان شىء من الكفر أو النفاق .

وهذا هو القرآن يفرق بين المؤمنين المجاهدين ، والمؤمنين القاعدين ، وبين من أنفق قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعد وقاتل ، ولئن اتفقت كلمة علماء أهل السنة على عدم تكفير مرتكب الكبيرة أو مادونها فلقد اختلفوا فيما وراء ذلك .

٢ـ حول وصف تارك العمل :

.. فقال أكثرهم : مؤمن ناقص الإيمان .

باعتبار أن أصل الإيمان باق يؤيد ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام «أخرجوا من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان» .

وباعتبار أن النصوص النافية للإيمان تنفى كمال الإيمان أو الإيمان الحق .. يؤكد ذلك ورود لفظ «حقا» فى بعض النصوص التى تعتبر العمل من الإيمان ، كما يؤكدها ورود نصوص أخرى تثبت الإيمان .. والتوفيق بين النوعين من النصوص لا يكون إلا بنفى كمال الإيمان وإثبات أصل الإيمان !!

«والبعض قال : يخرج من الإيمان إلى الإسلام» لأن

كثيرا من النصوص التى نفت الإيمان لم تنف الإسلام . يؤكد ذلك قول الله «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ...» .

فقد نفى عنهم الإيمان وأثبت لهم الإسلام .. ومثل الأعراب المؤلفة قلوبهم ، ومسلمة الفتح ، والمنافقون ـ على خلاف بالنسبة للمنافقين ـ وكثير منهم يتجدد فى كل عهد .

وبقوله صلى الله عليه وسلم فيمن زنى «إذا زنى العبد خرج الإيمان فكان على رأسه فإذا أقلع رجع إليه» .

.. وقال بعض أهل الحديث يخرج من الإيمان إلى الكفر فمن نفى عنهم القرآن أو الحديث الإيمان ليسوا بمؤمنين ومن أثبت لهم الكفر فهم كفار ، لكنه ليس بكفر مخرج من الملة ... لأنه كما كان الإيمان درجات فالكفر درجات وأهل الإيمان فى الجنة درجات ، وأهل الكفر فى النار دركات .

فأصل الكفر ... هو الكفر الأكبر ، أو المخرج من الملة . أو الكفر الحقيقى .

وفرعه .. كفر أصغر ، أو كفر ليس بمخرج من الملة ، أو كفر مجازى أو كفر دون كفر ـ يؤكد ذلك أن ـ الرسول لم

يرتب نتائج الكفر كإقامة الحد ومنع التوارث على النوع الثانى وإن رتبها على النوع الأول .

كما يؤكده أن القرآن غاير بين أنواع من الظلم سماها ظلما وأنواع من الفسق سماها فسقا ...

فلقد سمى الشرك ظلما وسمى اللمز والغيبة ظلما .. ..

فهل يستوى الظلمان ؟

وسمى مخالفة إبليس فسقا ، وسمى رمى المحصنة فسقا

فهل يستوى الفسقان ؟

كذلك سمى جحد آياته وقتل أنبيائه كفرا ، وسمى الحلف بغير الله كفرا ... فهل يستوى الكفران ... ؟

الصورة الثانية : مغالاة فى التنسك :

وإقامة شعائر الله أمر مطلوب ومرغوب !

لكن ليس مطلوبا ولا مرغوبا أن يستغرق وقت المسلم وجهده ولا يبقى لبقية الدين شىء !

ومن هنا أخطأ البعض الذين ظنوا أنهم يعبدون الله حق

عبادته إذ فرضوا على أنفسهم رهبانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم ، وانقطعوا عن الحياة ، وتخلفوا عن الجهاد وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة إذ عطلت أحكام الله ، وإذ دنست بلاد الإسلام ، وإذ تحكم فيها الكافرون والملحدون !

وأخطأ آخرون انقطعوا للتنسك والتعبد ، وراحوا يتكففون الناس . أو يفرضون عليهم الإتاوات ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فريق فعل ذلك بعد أن سألهم ومن يطعمهم ومن يسقيهم .. فقالوا كلنا يا رسول الله .. قال كلكم خير منه .. !

وإن الإغراق فى جانب وإعنات النفس فيه .. يؤدى بغير شك إلى الملل والسأم مما يفضى بعد ذلك إلى الانقطاع ، أو يرتد بالنفس إلى النقيض الآخر أو يؤدى إلى خلل فى الجسم أو العقل أو المال .

«واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم» .

وفى الحديث :

«عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا»[1] .

«إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»[2] .

ولقد أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمان الفارسى على ما قاله لأخيه أبى الدرداء فصارت سنة إقرارية .

«إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا فاعط كل ذى حق حقه»[3] .

ويشير إمام جليل[4] إلى أن أفضل العبادة إرضاء الله سبحانه وتعالى بما تقتضيه ظروف كل وقت ، فأفضل العبادة فى وقت الصلاة آداء الصلاة وأفضل العبادة وقت الجهاد

---

١ ـ الموافقات ح ١ ص ٣٤٣ .
٢ ـ رواه أحمد والبيهقى .
٣ ـ من حديث رواه البخارى والترمذى .
٤ ـ الإمام ابن القيم . فى مؤلفه مدارج السالكين ج ١ ص ٨٥ ـ ٩٠ .

المسارعة إليه ، ووقت السعي على الأرزاق كذلك . ووقت إعانة الملهوف ... ولو أن شخصا رأى غريقا يستطيع أن ينقذه فانصرف عنه إلى أداء الصلاة لكان آثما ... كذلك لو أن مسلما سمع نداء الصلاة فانصرف عنها إلى عمل .. وفى وقت العمل سعة لكان كذلك آثما .. ولو أن عدوا دهم بلاد الإسلام فتركه الناس إلى الصوامع والمساجد يدعون ويتعبدون لكانوا آثمين .. وهكذا .



خاتمة

.. كانت هذه هى الكلمات التى كتبتها منذ ست سنين خلت ..

وكأنها ـ بفضل الله ـ قد كتبت لما يجرى اليوم !

وبين يدى صدور هذه الطبعة طالعتنا الصحف بالقبض على شباب أطلقوا عليه شباب الهجرة والتكفير .. وأذاع أنهم يكفرون الذين يتحاكمون إلى غير القرآن ، أو الذين يرتكبون الكبائر .

وكتبت تعليقا على ذلك لم تنشره الصحف فى ذلك الحين ، وإن وجد له مكانا بين صفحات هذا الكتاب .

قلت : إن المسئول أولا عن هذه الموجة من التكفير أجهزة الإعلام .. لأنها تخلت عن رسالتها .. فى دولة دينها الإسلام .. تخلت عن بيان أساس هذا الإسلام وهو العقيدة والإيمان كما تخلت عن بيان أخلاقه ، وشعائره ، وشرائعه !

ولم تكتف بالدور السلبى فى التخلى عن بيان الإسلام ، بل ارتكبت دورا إيجابيا خطيرا .. هو إشاعة الفاحشة والإغراء بالجريمة ونشر الرذيلة .

والقانون الطبيعى .. أن لكل فعل رد فعل مساو له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه .. وقد كان رد الفعل ذلك التكفير .. فإن من يستمع الإذاعة أو يشاهد التليفزيون أو يشاهد السينما أو المسرح .. معذور إذا خرج بالنتيجة التى خرج بها ذلك الشباب !

وقلت المسئول ثانيا .. أجهزة الأمن ..

بما باشرته فى الماضى القريب ـ بعلم القيادة السياسية فى ذلك الحين وبأمرها ـ من تعذيب فاق كل تصور ، وامتد إلى البرىء قبل المتهم ، وإلى المؤمن قبل الكافر ، وإلى البر قبل الفاجر ..

ولا يمكن لمن يرى أحد زبانية العذاب يضرب بحذائه رأس رجل يلفظ أنفاسه الأخيرة .. بعد معركة تعذيب .. ليس فيها غير طرف واحد .. يمسك بالسوط أما الثانى فمقيد أعزل .. ! .. لا يمكن لمن يرى هذا ، ويرى معه كرائم نساء

العائلات وبناتها ، وأطفالا صغارا دون التمييز .. كل هؤلاء يعلقون من أرجلهم ويضربون بالسياط .. لا يمكن لمن يرى هذه الملحمة الحزينة أن يحكم لهؤلاء الجلادين بالإيمان !

والمسئول ثالثا .. هم الذين يحولون ـ بحسن قصد أو بسوء قصد ـ دون وصول دعوة الله خالصة صادقة إلى الناس .. كما نزلت على الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام .. بينما يسمحون بذلك الفساد يستشرى .. وبتلك الفواحش تشيع .. !

وقلت بعد ذلك .. إن ذاك بعض الداء .. والقضاء عليه شفاء لصدور هذا الشباب الطاهر ، من تلك الأفكار المتطرفة .

وقلت : إن العقيدة لا تعالج بالقمع أو الإرهاب .

وإن القبض ، والحبس ، وعمل القضايا ، والقتل أحيانا .. كل ذلك لا يزيد العقيدة إلا لهيبا ، وإن الفكرة لا تردها إلا فكرة .

وقد كان خيرا لهؤلاء الشباب أن يجمعوا .. ليتلقوا الفكرة الإسلامية الصحيحة .. من دعاتها ! فى وضح النهار ،

وتحت سمع السلطة وبصرها ! ..

وبعـــد ..

فما أحوج المسلمين وقد تقطعوا فى الأرض أمما .. منهم الصالحون ومنهم دون ذلك !

ما أحوج المسلمين وقد تمزق الصالحون منهم .. بين إفراط .. وتفريط .. !

وما أحوج المسلمين وقد تمزق ميراثهم بين الصليبية المتعصبة ، واليهودية الحاقدة ، والشيوعية الكافرة .. فى الأندلس ، وفى فلسطين ، وفيما وراء البحر الأسود .. !

ما أحوجهم .. أن يعودوا من حيث بدأوا .. ليؤسسوا بنيانهم على تقوى من الله ورضوان . ليؤسسوه على الإيمان الحق .. الذى تأسس عليه أول بناء .. من غير إفراط ، ولا تفريط .

ليعود لهم المجد الأول الذى عاشوا به .. خير أمة .. وأكبر دولة .. !

فهـــرس

• أيها الولد المحب
الإمام الغزالى
• التعبير الفنى فى القرآن
الدكتور بكرى الشيخ أمين
• أدب الحديث النبوى
الدكتور بكرى الشيخ أمين
• أنبياء الله
الأستاذ أحمد بهجت
• الحجة فى القراءات السبع
للإمام ابن خالويه
• الشيعة فى الميزان
فضيلة الشيخ محمد جواد مغنية
• دفاع عن أبى هريرة
الأستاذ عبد المنعم صالح العلى
• الإسلام وتوزيع الثروات
الدكتور إبراهيم البرايرى
• الإسلام فى مفترق الطرق
الدكتور أحمد عروة

• المسلم فى عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبى
• الوصايا العشر للإمام حسن البنا
تحقيق الدكتور عبد العظيم المطعنى
• الجائز والممنوع فى الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعنى
• مناسك الحج والعمرة
الدكتور عبد العظيم المطعنى
• ونزل القرآن
الأستاذ أحمد فراج
• حقوق الإنسان بين الإسلام
والمذاهب المعاصرة
عبد الله بن على المحمود
• خصايا الإسراء والمعراج
مصطفى الكيك
• الشيوعية والشيوعيون فى ميزان الإسلام
الدكتور عبد الجليل شلبى

* * *

* مؤلفات الإمام الأكبر محمود شلتوت

• تفسير القرآن الكريم
• الإسلام عقيدة وشريعة
• الفتاوى
• من توجيهات الإسلام
• إلى القرآن الكريم
• الوصايا العشر

* مؤلفات الأستاذ محمد قطب

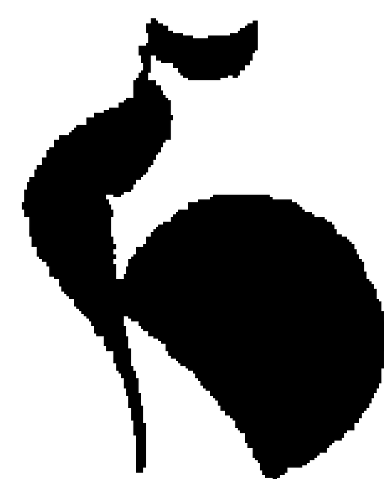
- منهج التربية الإسلامية [الجزء الأول]
- هل نحن مسلمون !
- الإنسان بين المادية والإسلام
- شبهات حول الإسلام
- قبسات من الرسول
- منهج الفن الإسلامي
- دراسات في النفس الإنسانية
- التطور والثبات في حياة البشرية
- معركة التقاليد
- في النفس والمجتمع
- جاهلية القرن العشرين
- دراسات قرآنية
- منهج التربية الإسلامية [الجزء الثاني]

* * *

* مؤلفات الشهيد سيد قطب

- في ظلال القرآن
- العدالة الإجتماعية في الإسلام
- الإسلام ومشكلات الحضارة
- نحو مجتمع إسلامي
- هذا الدين
- تفسير آيات الربا
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
- دراسات إسلامية
- السلام العالمي والإسلام
- معركة الإسلام والرأسمالية
- إسلام أو لا إسلام
- المستقبل لهذا الدين
- معالم في الطريق
- التصوير الفني في القرآن
- مشاهد القيامة في القرآن
- تفسير سورة الشورى
- في التاريخ فكرة ومنهاج
- كتب وشخصيات
- النقد الأدبي أصوله ومناهجه
- مهمة الشاعر في الحياة
- معركتنا مع اليهود

رقم الإيداع ٨٠/٥٠٥٣ الترقيم الدولى ١ - ١٠ - ٧٣٣٦ - ٩٧٧ ISBN



مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٧٥٤٣١٤ برقياً : شروق القاهرة - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

